على هامش وصوله الى القاهرة

امتحان جديد لقيم محمود درويش

« آن لي ان اذل الكلمة بالعمل »
ـ من قصيدة لمحمود درويش ـ

اثار وصول محمود درويش الى القاهرة ، الدهشة والتامل . وكان الشاعر القادم الى القاهرة بعد مكوث سنة في موسكو يتوقع ذلك . فشاء ان يقطع السبيل على اثارة الموضوع ، مشددا في بيانه على ان قدومه « ساالشخصية يتحمل هو وحده مسؤولية اختيارها دون تحويلها الى موضوع للمناقشة والاخذ والرد » . ورغم اننا هنا ، لا نريد ان نخوض في امر شخصي يخص الرجل ، لكننا رغم ذلك لا نستطيع ان نمتنع عن التفكير ، وبصوت عال ، في « واقعة » تتعلق « بشاعر الارض المحتلة » واحد ابرز وجوه « الادب الفلسطيني المقاوم » . ان الاهتمام بمحمود درويش الان ، هو الاهتمام القديم ، الاول ، لانه ، الاهتمام به كشاعر ، ومثقف ، وسياسي ، ومواطن : فلسطيني .

في آخر مقابلة أجريت معه في موسكو قبل قدومه ، ونشرتها الهدف (٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٠) قال الشاعر :

ـ التحدي الاول والاساسي (الذي اجابهه ..) هو ان ابرهن لنفسي ، ولنفسي اولا : هل هذا وطني ام لا . كل يوم اواجه تحدي الايقاع بيني وبين وطني . اني انظر في كل شجرة وحجر وشارع ولغة ونغم فلا اجد نفسي .. لا اجد ماضيي ، ولا اجد شعبي ولا اجد وجهي ، ولا اجد يدي ، واحيانا لا اجد لساني .

فمن انا .. ان البلاد بلادي ، لكن الواقع يحاول اقناعي بان هذه الحقيقة تنتمي الى الماضي والمستقبل الان ملء بالوعود .

ويضيف الشاعر :

ـ انا الان واقف بهذه الدوامة . دوامة اصالة الماضي ، وطراوة الجرح وحاضر الكيان ، والصلب والتحدي والانحناق .

ان العالم يمتحن على الارض القيم . او ما اعطلحها على تسميته قيما في ما يتعلق بالحق والخلق .

التحدي هنا ليس سهلا ... ليس سهلا كما يبدو للوهلة الاولى . انه في منتهى الغموض. ان تكون حيتك خيرا ليس سهلا .

من هذه المقاطع بدا واضحا ان الشاعر ، قد وقع تحت وطأة تمزق نفسي عنيف . والى هذا التمزق ، بدا يأس خافت يشيع في جنبات الشاعر دون ان يصرح . وقد كان من الطبيعي ان يتوج هذا اليأس بمغادرة الوطن نهائيا .

لقد اثر محمود درويش واختار اخيرا النزوح عن وطنه تحت ظل قناعته بان « اهمية ما اكتبه لا ينبغي ان تستمد من المكان الذي اكتب فيه ، ولكن من القضية التي اكتب فيها اينما كنت ».

وقد كان سيكون سهلا على محمود درويش ـ لو صح ذلك .. ـ ان يبرز مرسوم منعه من دخول وطنه ، او يعلن عن سحب جواز سفره .

وهكذا : فاما ان الشاعر قد احس بالعجز التام عن الحضور في وطنه ، وهو الذي طالما اشار الى عذابات المواطن في فلسطين ، وطالما الح على انه بالاخلاص الذاتي يكون الانتماء ،دون المشاركة في اي نضال .

اما ذلك ، او ان الشاعر اراد فعلا ان يسلك مواصلات اخرى الى وطنه ، وهذا ما اشار اليه قائلا في بيانه « لست اول شاعر يبتعد عن بلاده ليقترب منها » .

لكنه من المفجع حقا ، ان لا يشير الشاعر اشارة واحدة ، وقد اصبح في اوساط عربية ، الى المقاومة الفلسطينية ، باعتبارها التعبير الوطني والشعبي الوحيد لوجود الشعب الفلسطيني ونضاله . فكيف السبيل الان الى الاقتراب من الوطن ؟

●

هل الوطن صدفة . هل الوطن حالة حب . هل الوطن امتياز للقلب . هل مستقبل الوطن يأتي بها لا خلاص لمافيه ؟ .

هل النضال يتوقف عند التصريح بالحب . هل شتم العدو وابراز مظالمه يؤدي الى اثبات وجود الشعب . هل الغناء للوطن (في الماضي) يفسر الاعتراف للاعداء بحق ملكيته ؟

هل يكون نضال من موقع العجز والاعتراف بالعجز . هل المطالبة بالديمقراطية تلتقي مع ابقاء جهاز الدولة الصهيوني . هل النضال البرلماني نضال شيوعي . هل الشيوعي التوقيع على موضوعة التعايش السلمي لحساب بقاء نظام اسرائيل ؟

هل المحافظة على التراث القومي ، تبرر الكف عن النضال في سبيل الاستداد القومي .

هل نكون في وطننا فعلا ، اذا ما بقينا عربا نتكلم العربية وننشد الاشعار العربية ؟ .

هل ننفي الشوفينية عنا ، بمعنى عدم المباداة في النضال لتقويض النظام الشوفيني .

هل كسب الراي العام العالمي يأتي عن طريق كشف « مظالم النظام الاسرائيلي » ومطالبة الدولة المحتلة باصلاح نظامها .

هل التعايش مع اليهود ، يمكن ان يتم تحت سقف النظام القائم ؟

هل يكون الان انتماء للفلسطين العربية . خارج الانتماء العميق والمتين للمقاومة الفلسطينية ، التي تمثل ابرز واعمق ظاهرة ثورية مسلحة في الوطن العربي ؟

عندما صعدت المقاومة فداة هزيمة ١٩٦٧ ، كنا نرى بان اشعار المقاومة قد بدات تتحقق وكنا نحسب ان رسوخ هذه المقاومة واتساعها ، سيخلق ولا ريب تحولا لدى شعراء الارض المحتلة. تحولا قد لا تبين مظاهره سريعا ، ولكنه سيثبت لديهم ، فيهم ، توترا يعتنون بسببه عن « النضال » تحت سقف اعتى الانظمة الرجعية في العالم المعاصر . لكن اولئك الشعراء ـ وفيهم محمود درويش ـ ظلوا يراوحون في امكنتهم .

محمود درويش في موسكو

وظل منتهى النضال عندهم يتوقف عند المطالبة القانونية بالافراج عن سجين . او تعليم اللغة العربية في المدارس . وبينما كان المناخ الثوري يلتهب حولهم ، كانوا يكتبون اشعار الغناء للوطن والى جانب ذلك يناضلون في سبيل وصول مرشحي حزبهم الى الكنيست ليطالبوا بازالة آثار العدوان . العدوان الذي وقع على الشعب العربي الفلسطيني « الاخر » .

كان ثمة ازدواجية تسهل رؤيتها : ان ادوات نضالهم تسهم من حيث طبيعتها في حذف القيمة النضالية لاشعارهم . وكانوا هم من جهتهم ، يوجهون مواطنيهم العرب للعزف عن اشاعة مناخ جديد من الدماء .

وكنا نحن ، من بعيد ، نشفق عليهم .

فاذا كانت طبيعة الاحتلال الصهيوني ، تختلف جذريا عن اي احتلال اخر ، من حيث شموله الى جانب مظهره العسكري : الاستعماري الاستكاني والايديولوجي .

واذا كان النضال يقتضي في مرحلة ما ، الابقاء على العناصر القومية : اللغة ، الادب ، التواصل الثقافي مع الجماهير العربية .

فان هذا لا يعني في نهاية التحليل سوى اختيار « الدوبان » في الكيان الاسرائيلي ، ومجرد الاعتراف بالقية عربية عوضا عن « الشعب العربي الفلسطيني » . اعتراف بالقية اطلق عليها محمود درويش في مؤتمر نيودلهي اخر ١٩٧٠ : « البقية الباقية من الشعب العربي الفلسطيني » .

وهكذا اصبح « نضال » الشعراء الشيوعيون في الارض المحتلة ، عاملا في عزل الشعب الفلسطيني هناك ، عن المقاومة التي تلتهب في الضفة الغربية وغزة . وذلك عن طريق الاعتراف بمؤسسات العدو . ودعوة الجماهير الفلسطينية للتعامل معها . ثم عن طريق تخطئة نضال المقاومة الفلسطينية ، اذا اقتضى الحال. عبر صحف « الاتحاد » و « الجديد » .

لقد اختار الشعراء الفلسطينيون هذا المنحى في « نضالهم » . ولم يكن في هذا الموقف ، اي غطاء على موقف اخر اكثر تقدما . فقد كانوا ، وحتى الان ، منخرطين في الحزب الشيوعي الاسرائيلي . ولم يعمد هذا الحزب يوما الى الدعوة لاضراب او مقاطعة انتخابات . بينما هناك تنظيمات اكثر تقدما ، مثل منظمة ماتوين. فما معنى الاعتراف بالكيان الاسرائيلي والكف للوطن في وقت واحد ؟

منذ صعود المقاومة ، حسبنا ان شعراء الارض المحتلة ، سيلتقون مع ابناء وطنهم في طرق . لكن وبا للاسى ، فان كل منهم لغة ، والقسم الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، الذي يناسبه يوميا عبره شعراء الارض المحتلة ، لا تتجاوز لغة نظام دايان ذاته .. الا في « كمية الارض » الواجب ابتلاعها والواجب التخلي عنها . التخلي عنها في سبيل سيطرة ـ تقلق فوق الارض ، مؤقتا ـ في سبيل السيطرة على مستقبل العرب الى جانب القوى الامبريالية . فما لنا الفدائيون الذين طالما كافحوا واستشهدوا من اجل فلسطين ، حتى لا يدركهم درويش وهو راجع الاردني بعد ان « كافحهم » مرارا اجر الاستشهاد .. وفي قلوبهم والى صدورهم انشد درويش . ام ان النظام الاردني سيساعدهم على ازالة آثار العدوان ، وفي كسب الراي العام العالمي العزيز .

●

فلسطين عربية ، ام « فلسطين اسرائيلية » تلك التي يكافح وينافح عنها درويش ؟

فلسطين عربية ، ام « فلسطين » الكسل وخراب وماضي اسرائيل ؟

فلسطين عربية ، ام « فلسطين » التاريخية الغابرة التي تقتل ، اذ تبقى في الماضي ، جميل فلسطين الطالع ؟

ترى ما الذي يفعله درويش لكي يقترب من وطنه .

هل يلتحق باحد الاحزاب الشيوعية العربية « الشقيقة » فيساهم معها في نشاط العمل السلمي والدولة الفلسطينية على حساب دعم الفلسطينيين الوطنيين ؟

ام انه يلبث في موقعه الجديد : « حيث لا مبرر لتنظيم شيوعي في ظل العلاقة التنسيقية مع الدولة الصهيونية الاولى » ؟

ان الموقع الذي سيحتله درويش، هو الذي سيعطي شعره اللاحق ـ كما شعره السابق ـ فيما جديدة . او يحول بالامكان النظر الى القيم القديمة من زاوية جديدة .

ففي هذه المرحلة التي يحتدم فيها النضال الوطني الفلسطيني ، يغدو الشعر الذي يمجد مجرد غريزة البقاء الوطني ، ملهاة .

واغلب الظن ان محاولات الابقاع بينه وبين وطنه ، ستغدو الان ، اشد مرارة وحدة .

فثمة الورد الذي ينبت على جرح مقاتل .

ومن اجل الجرح ، وورد الجرح ، لا بد لمحمود ان ينخذ الفعل ، الذي غنى له سابقا ، وقرر ان ينجازاليه . الفعل الذي به وحده ، الان ، يبرر شرفه الفني والوطني .

والا فان الفاجعة ـ وما يترتب عليها من محاكمة .. ـ لا بد ان تقع ، في حضرة التناقض الاكيد والمروع بين الاخلاص الذاتي واداة التعبير السياسي .

(م . سفيان)

من الحلم يأتي الفارس الاسمر

فرس لرفيق شرف

ابو الفوارس

« عاد رجل يحمل بين ذراعيه ، حملا بش ، وحمم الى سدره حمامة، وبشه لجميع الرجال، امنية السرد الطاهرة ، يقول شكرا للحب ، يقول كلا للطغيان » .

بول ايلوار

بعد ثلاث سنوات هادئة « لكنها ضرورية » عاد الينا رفيق شرف بمعرضه الاخير «الخيل والرجال » الذي يعرض فيه نيف وعشرين لوحة، يمكن اعتبارها « بحرارة » ، واحدة من اهم الاضافات الاخيرة في تاريخ فننا العربي المعاصر. في هذا المعرض يحرك رفيق شرف ـ اخيرا ـ صرحا على القوالب القديمة التي يحجر فيها ما يدعى بالفن الحديث ، يتمرد على اللون على الشكل ، على المحتوى ليخلق لنا اعمالا جديدة جديرة بكل اهتمام وتقييم .

ينطلق عالم اللوحات من البطولة ـ الرمز ، ينطلق من رؤية للتراث تطور التراث نفسه في اشكال جمالية باهرة .. انها ـ البطولة ـ عند رفيق شرف « اللعب الذي بهز الحياة ... بفتحها ، يغتصبها » ... انها الشوق الى المغامرة غير وجودنا .. طريق خارج نفوسنا غابتها ان نجد نفوسنا » (١) .

« عنترة » و « الزير » و « علي الزيبق » (ثلاثة نماذج ذات عمق روحي وتاريخي) ـ كما يقول رفيق شرف في منشوره الفني ـ عودة الى الماضي الى المنابع ... ان الفنان بادراكه لمسؤوليته عن وعي الجماهير ... يحس بتخيط هذا الجماهير وحاجتها الماسة للوصول الى فيها الذاتية الصافية ... مكونات حياتها ، فيغوص في عالم التاريخ آخذا منه امجاده ولحظات بطولاته العظيمة .. لحظات تثير (افسي حالاتنا اختنافا) .

تكتسب شخصيات اللوحات ابعادا رمزية حادة وكانما يريد منها رفيق شرف ـ عبر رؤياه ـ ان تكون تعبيرا عما يطمح ان يكون عليه انساننا الجديد ، فرفيق شرف يرى الى الفن كرؤيا تعتصر الذكرى . سوحد عنده عنصرا الحساسية والتخيل : فمصبح « الاحاسيس » عنده خلاقة مبدعة بل ومحرضة ، وتوحد التحول مع الرجال في تصميم قوى يلتصق بالتطلع البطولي النبعث من الوراء ـ من قيم وروحية الماضي ـ الى الامام في انطلاقة لا تعبر الحاضر سوى لحظة هي لحظة الخلق الوحدة والمدمرة .

تتراوح الوان اللوحات بين الاسود الحساس حتى الابيض المشرق مرورا بالزهور والفرح والأمل ... اللون هنا عنصر جمالي اللوحة بقدر ما هو ربط للاحاسيس وتعبير عن الضرورة والتالق وانبعاث الذات في لحظات مضيئة ... اللون هو تزاوج صاف بين ما كان وما يجب ان يكون ... بين ما هو من طبيعة الامور ان يكون، بعبر اللون عن قدرته الارادة الانسانية ، صاحاته الشاسعة والخلجات المشرقة النابضة بالامل يتحدث رفيق شرف كالطفل الذي تمكن من حل اولى كلماته المقاطعة ، فرحه فرح طفل ولونه لونه طفل وتقييمه تقييم طفولي بريء .

انما الدعوة جريئة .. دعوة الى الصفاء والى السرد الى الجميل والمفيد ، دعوة الى توحد الروح بمكوناتها وتوحد الرؤيا بالواقع ..

الم نقل رفيق شرف في قصيدة له نشرت في مواقف :

في قصيدة له نشرت في مواقف :

« اذكر كل شيء
طفولتي وبيتي والحقول والتلال
وغرفتي الفارغة في الشرق » (٢)

لقد توحد الشرق ، في اعمال رفيق شرف الاخيرة على صورة البطل المطل من الذاكرة ، البطل الاتي الينا من خلف رؤانا ، البطل الاتي من احلامنا حاملا الينا النور والسيف البتار ، معتقلا صهوة جواد مشرئب نحو الافاق ، نحو آمالنا .

يحمل بطل رفيق الشرف الموت ويتوجه نحو الاعداء ، نحو العراقيل ، نحو المللوك ، نحو الجحيم، يريد ان يقتل كل شيء موكانه الاله الذي نام قرونا طويلة ثم حان له ان يفيق فاقاق نشيطا ، صباحيا ، مشعا .

●●●

تتلفت الشعوب ، لحظات هزيمتها وياسها التي تسبق لحظات الثورة ، تتلفت حولها باحثة عن النقذ ،عن الامل . لان الشعوب « طفل صغير » يريد من ياخذ بيده .. والبطل هو صورة الايمان في هذه اللحظات تحتاج هذه الشعوب الى مجالات جديدة للتعبير سواء بواسطة الكلمة او اللون او الحجر وفي هذه المجالات تجد الشعوب ايمانها الجديد المرتبط بالدرجة الاولى بواقعها ، وهذا ما يعطيها دفعا يقودها ، على الاغلب ، الى التغلب على ذاتها لتنطلق ، والفنان مسؤول الى حد كبير عن وعي الجماهير ، وعليه تقع مهمة بعث الروح الجديدة في الشعب ، وهذه المهمة تجعل من الفنان معرضا لبدفع مجتمعه الى التغيير . الى التحول : وللتوغل في هذا يحتاج الفنان الى تلقط رموز من ازمان اخرى ، ازمان اللحظات الحضارية الكبرى التي لا تني ترتبط باذهان اوسع قطاعات من الشعب ، فيخلق من هذه الرموز لحظات جديدة دافعة نحو البحث والتجدد .

تشكل الجمالية الظرف الاول من عملية الابداع الفني ، كما تشكل الفائدة ، الظرف الثاني . وهذان الظرفان يتوحدان عند كنت في « نقد ملكة الحكم » فهو لا يرى « فرق بين الجميل والمفيد » (٣) وليكون للفن صفة الافادة عليه ان يصل الى اكبر عدد من المتلقين ممن لهم مصالح مباشرة في ما يرمز اليه مضمون العمل الفني ، وهذا ما يقودنا الى بحث وظيفية الفن .

ربما استطاع رفيق شرف ان يجد في هذا المعرض رؤياه الفنية الجديدة وربما استطاع ان يصل ذاتيا الى قدر الخلاص ، ولكن عملية الابداع هذه تبقى ناقصة ، بل وعلى قدر كبير من التقصير اذا عرفنا ان رفيق شرف برؤياه هذه انما يتوجه ـ وهذه حقيقة لا مراء لدحضها ـ الى قطاعات فوقية من الجماهير ليست لها ، بالدرجة الاولى ، اية مصلحة في اي قيس نوري قد يتصل باللوحة ، فطريقة العرض ومكانه تسمح ، وفقط ، لطبقة معينة برؤية هذه الاعمال ، وشرائها غالبا ، وهذا الاقتصار يفقد العمل الفني كل طاقته الهدامة ليصبح مجرد لوحة تعلق في صالونات معينة تكاد لا ترى فيها الا قيمها الجمالية ؛ اذا فثورة رفيق شرف عبر هذه الاعمال ثورة مبتورة متفصلة عن جذورها . وهذا الواقع يدعونا الى تساؤل لطالما اثار النقاش : لماذا لا يعرض الرسامون، ذوو الرؤى الثورية ، اعمالهم في الهواء الطلق.. في الشوارع والساحات والحدائق والدكاكين.. في اي مكان .. ؟ اي مكان يتيح ، لاكبر عدد ممكن من ذوي المصلحة ، رؤية وتذوق والتاثير على احاسيسهم ، « لقد قدمت الكسيك المنفعل حتى ، بالاعمال ، « لقد قدمت الكسيك في اوائل هذا القرن درسا من اروع الدروس في امكانيات الثورة على الفن ثم في امكانيات الفن كثورة بذاته ، فعندما قامت الثورة هناك تحول الفن على ايدي الفنانين ونبع من ارادتهم فما ان عاد « وبقيرا » من باريس بعد الثورة حتى احس ان لوحة الصالون لا تستطيع ان تؤدي وظيفتها في ربط الجماهير بالفن ، وانطلق الى الملوحات الحائطية يخاطب من خلال الرموز العامة جموع الشعب ، ويسجل احداث الحياة وانتصاراتها ، واحاط بريقيرا جموع من شباب الفنانين ممن نهض التصوير الجداري على ايديهم وفرض العمل الفني وجوده على كل مجالات الحياة العامة » .

ان اية ثورة وانتفاضة على اي شكل او مضمون فني ، لا تصل الى غايتها ولا تقوم باي معمول في حياة الشعب ، الا بخلقها مجالات جديدة تتيح رؤية جديدة لثورة متوجهة الى اللايين ، وغير مقتصرة في ذاتيتها على بضعة عشرات من الرواد المحترفين لصالونات الفن . بات علينا الان ان نتطلق الى عوالم جديدة في الفن ، هذا صحيح ، ولكن الاصح منه انه بات علينا ان نتطلق بهذه العوالم الى جماهير جديدة . جماهير اخرى ـ وهو ما عرفه رفيق شرف خير مثال على الفن الواجب عليه الالتصاق بالشعب والتعبير عنه وعن امانيه لم التاثير فيه . اما « ثورة » رفيق شرف الاخيرة هذه فلن نعتبرها ، وحتى اشعار اخر ، سوى ثورة « جمالية » ذاتية ، لم تصل بعد الى المستوى الحقيقي لمفهوم الثورة ونحن ندعو رفيق شرف بكل اخلاص ان ينزل الى الشعب .. ان يرسم للجماهير المريضة لانها هي ماحة الملحة الحقيقية في رؤياه الفنية، ولونه ملك هذه الجماهير ، كان كل ما فعله رفيق شرف ان استمارها وقدمها مصقولة منشأة في صالونات انيقة لجمهور انيق .. يبحث عن الزينة في الانبناء .

ابراهيم العريس

---

١ ـ ادونيس ـ مقدمة للشعر العربي ـ المجلة تشرين ٢ ـ ١٩٦٣ ـ ص٧٠ ـ
٢ ـ مواقف العدد ٢ ص ٩٤
٣ ـ امانويل كانت ـ نقد ملكة الحكم.

رسائل مختصرة في بريد الذاكرة

ـ ١ ـ

واعود اصرخ من جديد
كطل المواويل ... انطفت
والموت ازهر في الجليد
فلتحترق رغباتنا
ولينتحر جمل البريد
ان لم يصل تلك الخطوط الغامضة
ويجيء بالحب البعيد

ـ ٢ ـ

من انت يا ظلي الطويل ...؟
من انت يا سفر الضباب الى الخريف
من انت يا صمت المصابيح اليتيمة
فوق الام الرصيف
هل جئت في جرح الفصول ... ؟
ام جئت في المطر القتيل ؟
من انت قل لي
انني كالشمس لا اخشى
الافول

ـ ٣ ـ

طمنوك يا وجهي الفقير
طمنوك في الشوط الاخير
طمنوك ... لكن
لن تموت ولن يفاجئك
الذبول
ما دام في صدر الطيور العائدة
عنف الخيول

ـ ٤ ـ

لا تحفروا ...
لا تحفروا وشم الجريمة
في ظهور الابرياء
لا تحفروا يا سادتي ...
فالثلج ... يوما ما
ستشربه الدماء

ـ ٥ ـ

لا تتركوني ...
حين اخرج من ظلالي الاربعة
لا تتركوني ...
حين اخرج للنهار
وامد قلبي للعيون الجائعة
لا تتركوني ...
حين امسك بالرؤوس المغلقة
وانام فوق عروقها المتلاصقة
لا تتركوني ...
قبل ان تاتي الشموس المفزعة

ـ ٦ ـ

الان يبتدىء النشور
الان يبتدىء النشور
الارض مادت ...
والشمس اشعلت الهواء ، رمته
في صدر القبور
لكن صوتا في الظلام
يظل يصرخ في غرور
لا ... لن اموت
لا ... لن تكون النار سيدتي
لا ... لن يكون الموت ..
ويجف هذا الصوت ...
ويجف تحته هتافات السكوت

عصام ترشحاني ـ حلب